

المفاهيم النفسية الأساسية في القرآن الكريم
وخطورة الإصطلاح

للاستاذ الدكتور حسن الشرقاوى

رئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

مقدمة

لاشك في أن القضايا التي يدعو (المعهد العالى للفكر الإسلامى) لمناقشتها في هذه الندوة ، قضايا على جانب كبير من الأهمية .. خاصة وأنها تأتى في الوقت الذى انبهر فيه الكثيرون بالتقدم التكنولوجى فى العالم الغربى ، فاعتقد المستغربون أن التقدم فى مجالات العلوم المختلفة إنما يكون بتطبيق النظريات الغربية ، حتى فى العلوم الحياتية والسلوكية ، ولم ينتبهوا الى أن التقدم فى العلوم المسخرة شئ ، وأن المنهج فى العلوم الحياتية — كالأخلاق والتربية وعلم النفس — شئ آخر .. كما قال عز من قائل : « لكل جعلنا منك شرعة ومنهاجا »^(١) .

ولما كان الإسلام هو منهجنا الذى جعله الله لنا ، فإن الأساس الذى تهدف اليه شريعتنا فى تطبيقاتها على جميع الأنشطة الانسانية ، هو تحقيق الوسط العدل^(٢) ، سواء فى الفكر أو السلوك أو الأخلاق .. فقد أمرنا الله عز وجل باتباع صراطه المستقيم ، الذى هو الخير الفاضل والعدل ، فقال تعالى :

* وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط .. المائدة/٤٢

* وكذلك جعلناكم أمة وسطا .. البقرة/١٤٣

* ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .. الاسراء/٣٩

* وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين .. الاعراف/٣١

ولا يقوم منهجنا الإسلامى على الفكر الذاتى واتباع هوى النفس ، وإنما يستمد من الهدى الربانى واتباع ما أمر به الحق تعالى فى كتابه العزيز وفى سنة نبيه . فهو منهج رأسى أفقى ، يقوم على الاستمداد من منابع الحكمة الإلهية ، وذلك هو الجانب الرأسى . ثم النظر الى حقائق الكون والنفس على ضوء الامداد الربانى

(١) سورة المائدة . آية ٤٨

(٢) راجع : نحو منهج إسلامى ص ٣٨ وما بعدها

الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك هو الجانب الأفقى من المنهج .

ومن هذا المنهج الإلهى ، تبرز قضيتنا اليوم ، حول تحديد المفاهيم الأساسية في مجال النفس الانسانية .. لأن معالجة هذا الموضوع لا يمكن أن تخضع للمنهج الغربى ، الذى يهددها بالوقوع فى الاجتهاد الذاتى والتأويلات الفردية التابعة من الهوى والظن .. وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وتتضح المفاهيم النفسية الأساسية ، من خلال المنظور القرآنى لحقيقة النفس الانسانية .. وليس من خلال نظريات فرويد أو غيره والتى تقوم على فكرة الصراع وتكوين الشخصية فى السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل^(١) ، وليس من خلال فكرة اللاشعور التى جعل منها اليهود ضربة موجهة لعقل الانسان وارادته الواعية^(٢) ، وليس من خلال قدرية الحتمية النفسية التى جعلها علم النفس الغربى كميثاق مفروض وقدر محتوم لا يستطيع الانسان منه خلاصا^(٣) . فقد اتضح أن علماء النفس الغربيين لا يدرسون النفس ، وإنما يدرسون السلوك النفسى فحسب ، ولهذا فان معارفهم حول حقيقة النفس الانسانية وأوصافها وخصائصها ، هى مجرد دراسة متواضعة للمظاهر النفسية تعتمد على التخمينات والاجتهادات الذاتية .. أما علم النفس الإسلامى ، فهو يستقى من كتاب الله ومن هدى النبوة ، وشتان بين نبع الحكمة الإلهى وبين شطحات الفكر الذاتى .. ففى حين يقول عز من قائل (ونفس وما سواها ، فאלهمها فجورها وتقواها) يقول اصحاب مدرسة الشخصية والتحليل النفسى ، وعلى رأسهم فرويد أن القانون الذى يحكم دنيا النفس هو قانون الغاب ، الذى يقرر أنه اذا لم تتدب أكلتك الذئاب^(٤) .

- (١) د. سيجموند فرويد : الموجز فى التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على ص ١٦ . ١٠٧ .
(٢) د. صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ص ١٠-١٥ .
(٣) د. سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية ص ٢٨-٤٣ .
(٤) د. حسن الشرقاوى : نحو علم نفسى إسلامى ، ص ٣٢ .

وفى الوقت الذى يلقي فيه علم النفس الغربى محنته الكبرى التى عبر عنها ايزنك Izink بقوله : ان معدل شفاء العصبيين ثابت فعليا ، سواء عولجت بأساليب العلاج النفسى المعروفة أو تركوا دون علاج^(١) .. فى هذا الوقت هدانا الله لاستكشاف موضوعات علم النفس الإسلامى الذى يقوم على مفاهيم راسخة للنفس الانسانية ، وردت فى كتاب الله وفى أحاديث الرسول ﷺ فكانت المنهج الذى اتبعه الحكماء من أئمة هذه الأمة من أمثال الحكيم الترمذى والمحاسنى والامام الغزالى وغيرهم كثير ، فاتضح لنا أن علم النفس الإسلامى لا يكتفى فقط بعلاجات الاضطرابات النفسية ، بل هو أيضا (علم وقائى) يحول دون وقوع هذه الاضطرابات أصلا ، بما يشير اليه من تحقق الأمن النفسى بالرجوع الى صفاء الإيمان .. فكانت حصيلة هذه الدراسة ، كتابنا (نحو علم نفس اسلامى) الذى لقي قبولا واهتماما واسعين ، وتواترت بعده كتابة عدة فى هذا الميدان الرحب من ميادين الثقافة الاسلامية .

المفاهيم النفسية والاصطلاح :

يذهب بعض المفكرين الى انكار أهمية الاصطلاحات ، ويقولون عبارة مشهورة تتردد كثيرا فى كتاباتهم وأقوالهم ، تقول العبارة (لا مشاحة فى الاصطلاح) حتى كادت هذه المقولة تكون احدى مبادئ البحث العلمى .. لكننا من جانبنا نرفض هذا المعنى بشكل قاطع ، فالاصطلاح هو المرحلة الأخيرة لاستقرار دلالة معينة فى الازهان ، وهذه الدلالة بدورها ترتبط بالكثير من المفاهيم المتداخلة مع الاصطلاح .. فاذا كان هذا الاصطلاح ينطوى على خلل معين فى التصورات ، انتقل هذا الخلل الى بقية المفاهيم .

ولذلك فقد أردنا طيلة السنوات الماضية ، أن نضع مجموعة من الاصطلاحات المرتبطة بالمفاهيم الأساسية فى الكتاب والسنة ، حتى نتقى الوقوع فى مخاطر الاصطلاح الغريبة التى تلقفها بعض المستغربين من الفكر الغربى دون تمييز ، فكانت هذه المصطلحات الغريبة أثرها الكبير فى تضليل الفكر .

(١) ايزنك : الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة قدرى حنفى ص ١٥٨ .

ولما كان موضوعنا اليوم مرتبطا بالمفاهيم النفسية ، فسوف نقتصر على عرض بعض الاصطلاحات الخاصة بعلم النفس الإسلامى ، مع مقارنتها بالمصطلح الغربى .. حتى يتضح بذلك الفارق بين المفهومين :

١- الزاجر .. لا الضمير :

اصطلاح الضمير ، بشقيه النفسى والاخلاقي ، مأخوذ من كلمة Conscience وليس له أصل فى الشريعة الإسلامية .. وقد تسبب هذا المصطلح فى العديد من أخطاء البحث فى العلوم النفسية والتربوية ، لما ينطوى عليه من غموض^(١) . ونظرا لهذا الخلط الكبير فى مفهوم هذا المصطلح الغامض (الضمير) فان كثيرا من المظالم ارتكبت باسمه ، فبعض البلدان تقتل غيرها بوحشية باسم الضمير الحر .. وبعض الناس يقيمون هذه المباريات الوحشية والعروض اللاانسانية ، تحت دعوى المخاطرة والمغامرة وضمير التحضر اللاواعى ولذلك فنحن نتساءل : اذا كان الضمير هو الأساس السليم للسلوك الانسانى ، فكيف ترتكب باسمه هذه الفظائع ؟ واذا كان الضمير كافيا ليعلم الانسان طريقه الصحيح ، فلم بعث الله بالانبياء مبشرين ومنذرين ؟ فاذا كان مصطلح (الضمير) غير صالح ليكون حكما عادلا يجعل من صاحبه بالضرورة أخلاقيا ، فلابد وأن ندعو الى مصطلح اسلامى بديل .. نستمدّه من تأمل آيات القرآن الكريم . وهذا المصطلح هو (الزاجر) فالزاجر كما ورد فى الآيات البينات ، قوة فى الانسان تحذو به الى مجانية المعاصى ، وتبتعد به عن كل ما يخالف الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها^(٢) . وفى قوله تعالى :

* والزاجرات زجرا .. الصادقات/٢

* ولقد جاءهم من الانبياء ما فيه مزدجر .. القمر/٤

فالزاجر واعظ فى القلب يهتف به للسير فى طريق الاستقامة ، ويرشده لسلوك سبيل الحق وينجو به من الأهواء والمعاصى .. ولهذا فنحن نرفض مصطلح الضمير

(١) راجع : نحو منهج إسلامى ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) راجع معنى (الزاجر) فى كتابنا : الفاظ الصوفية ومعانيها .

بما يشتمل عليه من دلالات نفسية وخلقية غامضة ، ولما اقترن به من التباس وابتعاد عن الصدق والوضوح ، لنستخدم هذا المصطلح والمفهوم القرآنى : الزاجر .

٢- كظم الغيظ .. لا الكبت :

يذهب علماء النفس الغربى وعلى رأسهم فرويد الى تقرير مفهوم للشخصية يقول بأن هذه الشخصية الانسانية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفرد الداخلية (الغرائز) وبين العالم الخارجى (الموضوعات)^(١) ، وخلال هذا التفاعل يقوم الفرد باختزان العديد من الخبرات عن طريق « الكبت » ، فيلقى بها فى مستودع المكبوتات : اللاشعور . وبالرغم من أن النظريات الجديدة فى علم النفس قد أغفلت تماما الجانب اللاشعورى ، ولم تعد تعترف به . فان مصطلح الكبت ظل مستخدما فى أعمال العديد من المفكرين المستغربين مما أدى بهم الى الاعتقاد بأن الانسان مغلوب على أمره ، وأن الحتمية النفسية هى قدره المحتوم^(٢) .

أما المصطلح الإسلامى ، والمفهوم القرآنى الذى نستبدل به مصطلح الكبت ، فهو الصبر وكظم الغيظ .. فقد جاء فى الآيات الكريمة :

* واصبر حتى يحكم الله .. يونس/١٠٩

* ان الله مع الصابرين .. البقرة/١٥٣

* والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. آل عمران/١٣٤

وهناك العديد من الآيات القرآنية التى تشكل فى مجموعها المفهوم الإسلامى للصبر وكظم الغيظ .. حيث تتجلى حقائق الصبر وقدرة الانسان عليه ، فالانسان قادر على الصبر وكظم الغيظ ، بالعزم ومخالفة النفس واتباع العقل والوسط العدل ، وحين يصبر الانسان ويكظم غيظه ، يكون قادرا على الغضب

(١) فرويد : الموجز فى التحليل النفسى ص ١٤ .

(٢) ك. هوك : نظريات الشخصية ، ترجمة د. أحمد فرج - مراجعة د. مليكة ، ص ٢٩-٣٤ .

والثورة والأذى ، لكنه في موقف اختيار .. فيختار الأفضل والاصلح^(١) . فهنا يكون الفعل واقعا عن وعى الفرد وادراكه لثمرة هذا الفعل ، وليس الأمر ناشئا عن الحتمية النفسية التي يقررها علماء النفس الغربيون وعلى رأسهم فرويد . ان الصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، وليس موقفا مرضيا أو عصيبا .

وأخيرا فان الصبر ليس موقفا سلبيا كالكبت ، فالصابر ليس مغلوبا على أمره ، وإنما هو صاحب موقف إيجابي يسمو على الأحداث ، ويرتفع عن الغرائز ، ويرضى بالقضاء ، ويدرك بالمعرفة الإيمانية حقيقة الابتلاء .

٣- الفطرة .. لا الحتمية :

ظهر مصطلح الحتمية بشكل واضح في علوم الميكانيكا .. ثم انتقل الى العلوم الانسانية كالاخلاق ، والتاريخ ، وعلم النفس^(٢) . وفي علم النفس الغربى ، يخضع السلوك الانسانى لقانون الحتمية الذى يحدد السلوك وفقا للتكوين الطفولى في السنوات الخمس الأولى من حياة الانسان .. وانتشر هذا المصطلح !

واذا مضينا في تأملاتنا للقانون الإلهى ، لنستضىء بالمعاني المناسبة^(٣) والتعبيرات المتكاملة والالفاظ الصالحة ، وجدنا لفظ (الفطرة) كمصطلح ، بديل أفضل وأشمل من مصطلح (الحتمية) فهو أصلح في التطبيق ، وأطوع في التعرف على الحقائق ، اذ أن الفطرة موجودة في الانسان كما هى الناموس الكونى ، فهى تعبير عن الوسط العدل والخير الفاضل .. يقول عز من قائل :

* فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها .. الروم ٣٠

* وما لى لا أعبد الذى فطرنى .. يس/٢٢

* قل أغير الله اتخذ وليا ، فاطر السموات والأرض .. الانعام/١٤ .

هذه الفطرة المشار اليها فى الآيات الكريمة ، تسمح بتجاوز مفهوم الحتمية

فيما يتعلق بالسلوك البشرى ، فهى لا تلتزم بقواعده التعسفية التى تجبر الانسان على سلوك معين ، بل هى تفتح الباب للالتجاء الى الله والسير على صراطه المستقيم ، فهو تعالى الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويجعل منها ميلاذا جديدا يجب ما قبله ، ليرجع الانسان بعدها الى الجادة والصلاح .. ولهذا كان مصطلح الفطرة كبديل لمصطلح الحتمية رجوع الى الحق ، وربط محكم بين علم النفس وبين الدين ، وطريقا لاثراء أبحاثنا وتقدمها فى طريق العلم والحكمة .

٤- الدفع .. لا الصراع :

يعرف فرويد الصراع بأنه : فقدان الشخص الثقة فى قدرته على رفع التناقضات بين القصور المؤلم وبين النفس ، مما ينشأ عنه صراع يؤدى الى محاولة استبعاد القصور المؤلم^(١) .. ثم شاع استخدام مصطلح (الصراع النفسى) حتى انتقل الى علم الاجتماع والاخلاق والسياسة .. وأكد أصحاب مدرسة الشخصية بعد انتشار هذا المصطلح ، على أن الصراع النفسى هو المكون الاساسى لبناء شخصية الفرد^(٢) . لكننا من خلال قول عز من قائل :

* ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. البقرة/٢٥١

* ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .. الحج/٤٠٠

نقول بأنه لا يوجد هناك صراع بالمعنى العلمى الحديث داخل النفس ، وإنما هناك ذلك (الدفع) الذى هو موقف اختياري من الانسان ، فهناك دفع ودفع مقابل ، كما فى قول عز من قائل :

* ادفع بالتي هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه الى حميم ..

فصلت/٤

* ادفع بالتي هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون .. المؤمنون/٩٦

(١) د. عزت راجح : الامراض النفسية والعقلية ، دار المعارف ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) بارترىك ملاهى : عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد ، ص ١٦٥ .

(١) نحو منهج إسلامى . ص ٣٥٨

(٢) كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى . ترجمة د. عبد الحميد صبره . ص ١٣٥

(٣) نحو منهج إسلامى . ص ٣١٩

فالدفع هو المصطلح العلمى الصالح للاستخدام ، فهو من بدرجة تسمح له بالانسحاب الى النفس والناس والمجتمع ، بحيث لا يحمل معنى التناقض الموجود فى مصطلح الصراع^(٢) .

طه — الرؤية .. لا أضغاث الاحلام :

أهتم علماء النفس الغربيون بموضوع الاحلام ، حتى أن فرويد يعتبر الحلم هو الطريق الملكى لمعرفة النشاط اللاشعورى فى العقل الانسانى ، وانه لغز مصور كمنعنى رمزى^(٣) .. فالحلم هو نوع من المكبوتات تظهر كرجبة لم تشيع بعد ، وكنوع من الارضاء الخيالى للرأى^(٤) .. ثم يذهب يونج الى أن الحلم هو تعويض عن الحياة اللاشعورية فى مقابل الحياة الشعورية التى يحياها الانسان .. ويذهب البعض الآخر الى أن الحلم هو خداع المرء لنفسه^(٥) .. وهكذا تمضى التأويلات الذاتية الى مالا نهاية .

والحقيقة أن ما يبحث فيه هؤلاء العلماء ليس الا وهم شيطانى لا تفسير له ، كما ورد فى الحديث النبوى (الحلم من الشيطان) أما المصطلح الاسلامى الذى ينبغى لنا بحث آفاقه ، فهو : الرؤية .. فان علم النفس الاسلامى يفصل بين الرؤيا والاحلام فى حين يخلط بينهما علم النفس الحديث .

وقد ورد لفظ الرؤية والحلم فى الحديث الشريف (الرؤية من الله والحلم من الشيطان) كما وردت فى القرآن الكريم فى قول عز من قائل :

★ يا أيها الملاء افتنوني فى رؤياى .. يوسف/٤٣

★ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .. يوسف/٤٤

فهناك اذن فرق شاسع بين الرؤية والحلم .. فهناك الرؤية الصادقة ، وهناك أضغاث الاحلام التى لا يعول عليها ، ويطلق على كليهما لفظ (منامات) وقد

(٢) نحو علم نفسى اسلامى ، نحو منهج اسلامى .

(٣) فرويد : تفسير الاحلام ، ترجمة مصطفى صفوان ، ص ١٢٩ .

(٤) ارنست جونز : التحليل النفسى ، ترجمة د. الشنيطى ، ص ٥٣ .

(٥) احمد فؤاد الاهوانى : النوم الارق ص ٩٧ .

قسم الشيخ عبد الغنى النابلسى هذه المنامات الى ثلاثة أقسام : البشرى ، رؤيا التحذير ، رؤيا أمانى النفس^(٦) .

ولما كان المجال يضيق هنا عن استعراض اقسام الرؤية وأشكالها وصلتها بالصحة النفسية ، على النحو الذى عرضنا له بشكل مفصل فى كتابنا (نحو علم نفسى اسلامى) فاننا سنكتفى هنا بالاشارة الى أن « الرؤية » التى يمكن تعبيرها وفهمها ، تختلف تماما عن « الحلم » الذى حاول علم النفس الغربى دراسته ، فوقع فيما لا حصر له من الاوهام والظنون .

خاتمة :

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض المصطلحات والمفاهيم القرآنية ، ومقارنتها بالمصطلحات السائدة .. ننتهى الى القول بأنه من الضلال والاضلال أن نتوهم أننا قادرين على اختراع منهج ومفاهيم من غيبات مفترضة ، ونبتدع من خيالاتنا مصطلحات غير متحققة ، وتتواضع على أسس وقواعد ذاتية ، نحاول بها أن نفهم ونفسر ونتنبأ ونحكم على السلوك النفسى ، زاعمين أن ما ابتدعناه كفيل بالوصول الى الحق واليقين . ولقد هدانا الله الى تحديد العديد من المصطلحات المستمدة من الحقائق القرآنية ، فان كنا قد عرضنا فيما سبق لبعض هذه المصطلحات مما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع ندوتنا اليوم ، فسوف نكتفى بالاشارة الى بعض المصطلحات الأخرى .. فنحن نقول (الاستقامة) فى مقابل الموضوعية ، و (الهدى) فى مقابل الخلق ، و (الحكماء) فى مقابل الفلاسفة ، و (العبودية لله) فى مقابل مصطلح الحرية ، والتفكر .. لا الفكر ، والتسخير .. لا التنبؤ والتحكم ، والبصيرة .. لا الحدس .

وأخيرا .. فان كل ما نزع من مصطلحات وقوانين نفسية بعيدة عن الهدى القرآنى ، هو وهم واهم ، وظن الطائنين .. وقد قال تعالى (ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا) ولقد أوصانا الله باتباع حكمة الدين ،

(٦) عبد الغنى النابلسى : تعطير الاناء فى تعبير المنام ص ١ : ٨ .

وأوصانا ألا نتبع الأهواء ، وأن لا نطع من أغفل الله قلبه عن الرشد .. ولهذا كله ، فنحن نقول كلمة حق : لا يمكن لنا فهم حقائق النفس الانسانية الا بتصحيح المفاهيم الاساسية ، ووضع اصطلاحات مناسبة للمدلولات القرآنية ..

وبالله التوفيق

أ.د. حسن الشرقاوى

رئيس قسم الفلسفة — كلية الآداب
جامعة الاسكندرية

المراجع

- ١ — ارنست جونز : التحليل النفسى ، ترجمة د. الشنطى .
- ٢ — أحمد فؤاد الأهوانى : النوم والارق
- ٣ — ايزنك : الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة قدرى حنفى .
- ٤ — باتريك ملاهى : عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد .
- ٥ — حسن الشرقاوى : التربية النفسية فى المنهج الاسلامى .
- ٦ — حسن الشرقاوى : نحو علم نفس اسلامى .
- ٧ — حسن الشرقاوى : نحو منهج اسلامى .
- ٨ — حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة .
- ٩ — حسن الشرقاوى : الفاظ الصوفية ومعانيها .
- ١٠ — حسن الشرقاوى ض الطب النفسى النبوى .
- ١١ — فرويد : الموجز فى التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على .
- تفسير الاحلام ، ترجمة مصطفى صفوان .
- ١٢ — صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى فى الفكر الفرويدى .
- ١٣ — سيد غنيم : سيكلولوجية الشخصية .
- ١٤ — ك. هوك : نظريات الشخصية ، ترجمة د. احمد فرج .
- ١٥ — كارل بوير : علم المذهب التاريخى ، ترجمة د. عبد الحميد صبره .
- ١٦ — عزت راجح : الأمراض النفسية والعقلية .
- ١٧ — عبد الغنى النابلسى : تعطير الانام فى تعبير المنام .